إنسان يونيسكو الشقي

بقلم يوسف عبد المسيح ثروت

عالم يونيسكو عالم فد فقد مقـــومات وجوده ، اذ أضاع فيـه الانسان كل القيم العزيزة عليه ، التي ناضل طويلا من اجل التشبث بها والدفاع عنها ، وتحقيق أهدافها ، فـي صيرورته وكيانه الوجودي . وبفقدان هذا العالم لتلك القيم ، انعكس هذا الفقدان في وجـــدان انسان العصر وفي جميع فعالياته النفسية والفكرية ، في مسيرة حياته ، في فراغ هذه المسيرة من دوافع التقدم ، في انغلاق الانسان على ذاته ، وفي ابتعاده عن نوعه ، وانفراده عن دلالات عصره ، في انحداره من ذرى تصوراته وتأملاته وآماله ، وفي عثوره على ذاته عارية من كل معـــالم الوجود الانساني ، فوجد الانسان نفسه بعد هذه العصور الموغلة فـي القدم ، كائنا بائسا ، وحيدا في طريق الآلام والعذاب ، تجتذبه لزوجة الولادة الزنخة وقلق الحياة المتلاشية ، وحقيقة الموت الماثلة للعيـان .

ولما كان السأم والقرف وعدم القدرة على الاعتياد على الحيـــاة من سمات القلق الرئيسية ، فان الايام تمضي مع انسان يونيسكو رتيبة ثقيلة ، سخيفة ، لا تتحرك الا بكل عسر ، وكأنها تتململـــل متثائبة ، مفقودة النشاط ، عديمة الحيوية ، شاحبـــة السيماء ، مترهلة ، كسيحة .. انها عذاب يتمطى ببطء عجيب وبلاهة أعجب ، وتدهورهـــا في سير الزمن متأن ، وكأن هذا التأني أمر مقصود ، يراد به أن يزيد من هوان الانسان ، ومن نكبته في هذا الوجود .. انه يشعر بسم السأم يتغلغل في دمه وأعصابه ، في دماغه ، وفي مخ عظامه ، يحس ببراثـن أخطبوط السأم هذا يدب على كـــل وتر من أوتار نفسه ، فتتمدد وتتكمش ، تتمزق وتتفتت ، ثم تتجمع وتلتم لتعود تتمزق وتتبعثر ، في عملية مد وجزر مرعبة ، نغمة موسيقية مجنونة ، رنين أســـى مستديم ، دائب ، أجش ، في فيثارة الوجود الحزينة .. عملية استنفاد ذاتي غير ذات جدوى ، فيها التشـــويه والاختزال والابتسار سمـــات واضحـة ، نكـاد تلطم من يتأملها بيد من رصاص مصمت . يلف كل ذلك جو من الرعب لا أول له ولا آخر ، ليل طويل بهيم مشبع بروائح التفسخ والبلادة والزناخة ، ليس فيه أمل في نهار قريب او بعيد ، لان النهار بما فيه من دفء وحرارة وشمس مشرقة معدوم من معجـم يونيسكو ، منذ ان وجد الانسان على هذه الارض الغبراء . لان يونيسكو لا يستطيع ولن يستطيع ـ على حسب منطقه وتعاليمه ـ أن يؤمن يوما ما بوجـود جاذبية حية على مثل هذه الارض ، تنعش وتحيي وتبعث الحركة فـي هذا الوجود ، ليكـــون للانسان ما يستحق التشبث به من معان وقيم ومثل . ذلك ان اعتياد الحياة لا الحياة نفسها ، هو الشيء الوحيـــد الممكن في هذه الحياة ، وان كانت هذه الامكانية ذاتها عسيرة كل العسر . واذا كانت الحياة حلما ، فليس الانسان الا تجسيدا لهذا الحلم (١) ، ومن ثم فالحلم ـ في هذا الوجود ـ هو الحقيقة الوحيدة التي تصمد أمام تجربة الانسان في هذا العالم الذي لا يعدو كونه حلما هو الآخر أيضـــا .

وعلى ذلك فان التطور النفسي ، في حياة الانسان ليس ســـوى اطار من الاحلام يحتضن الانسان ـ الحلم ـ ليتقلب من لحظة زمنيـــة الى أخرى ـ في سلسلة مـــن الانخذالات والاصطدامات والهـــزات والالتواءات ، يقع الانسان في شباكها منذ انحداره من رحم أمه ، الى حين دفعه غير مأسوف عليه ، لزحم أمه الارض ، حيث الراحة والسلام والنسيان والتلاشي في ثنايا عناصر الطبيعة البكماء ، الصماء .

ولما كان العالم سديما مشوها ، وجـودا عشوائيا ، لا رابط يربط أجزاءه ، فانسان يونيسكو لا بد له ـ بحكم هذا التشويه ـ ألا يشعر بمكانه في الحياة ، بين الناس ، وان يشعر بالخوف الذي لا يعرف له نعليلا ، ذلك الخوف الذي هو نوع من الفجيعة التي يعسر وصفها بـــل يتعذر . ويختلط الامر على مثل هذا الانسان اختلاطا مأسويا ، بحيث يتعذر عليه حتى الاعتياد على نفسه .. انه لم يعد يعرف ما اذا كـــان هو ام انه ذات اخرى (٢) . وعلى ذلك فالعزلة بهظه ، كمـا يبهظـه الاختلاط بالناس . انه وحيد في وحدته ، كما هو وحيد بين الناس . لا فرق لديه بين الحالين ، لان وحدته التي يتحمل اضطهادها هي هي في كلا الوضعين . ويعود سبب ذلك الى شذوذ الحياة ، التي لا تفرق بين المواقف ، فلا معنى اذن للتفريق بينها ، وهذه قضية منطقية تتلاءم مع هذه الحياة الشاذة التي تغرب في شذوذها الى حد يحمل بيرانجيه على القول : « أعجب أحيانا من كوني موجودا » . ومن ثم فالوجـــود نفسه مدعاة للتعجب والدهش ، لان الحياة لا تتلاءم مع هذا الوجود .

ان شذوذ العالم ورعبه ووحشيته وبطلانه وجنونه ولاشيئيتـــه وزواله والقت غير المجدي الذي ينبعث منه تجعل يونيسكو يعبر عـن كل ذلك بهذه الكلمات : « ليس لي من صور للعالم غير الزوال والوحشية والجنون والغرور واللاشيئية والرعب والكراهية اللامجدية . كل مـــا جربته وكل ما رأيته وفهمته في طفولتي : الجنون النافه الخسيس ،

---

(١) الخراتيت ـ بيرانجيه .

(٢) الخراتيت : بيرانجيه .

افانين الصراخ التي يغطيها الصمت ، الظلال التي يطوفها الليل أبد الدهر .» (١) اذن لا بد من وجود خطأ في هذا الكيان في مكان ما منه ، والا لما اختلطت الامور هذا الاختلاط المرعب ولما ارتبكت الاشياء هذا الارتباك . ولكن اين هو وجه الخطأ في هذا الكيان ؟ هذا ما لا أحد يعرفه ، او يحاول معرفته ، او هو اذا ما فعل ذلك ، فلن ينتهي الا الى ما هو عبث حتما . لان الخلل الكامن في أساس الكيان خلل ابدي ، لا مفر منه ، والا كان الكيان غير هذا الكيان وكان العالم عالما آخر .

وعلى ذلك فلا مناص من بناء حياتنا على أسس جديدة ولا مناص من العودة الى الاسقامة البدائية (٢)،لا بد من العودة الى الانسانية والتخلص من الوحشية التي نحن فيها . لا مندوحة من مكافحة الشر والانتصار للخير والعمل على تغيير الاوضاع لصالح الانسان .

بيرانجيه يطالب بمحاربة الشر ، الا ان هذه المطالبة لا تجد أذنا صاغية لدى دودارد الحكيم الذي يفلسف قضية الخير والشر بقوله : « الشر ! مجرد كلمة ! من يعرف ما هو الشر وما هو الخير ؟ ان المسألة مسألة افضليات شخصية » (٣) .. ثم انه ليس من شر حقيقي فيما يحدث طبيعيا . ذلك بأن الطبيعة لا تعرف الشر بالمعنى الاخلاقي الذي نعرفه نحن ، والا لكانت الطبيعة كائنا عاقلا مدركا ، وهو ما لم تكنه في يوم ما ، ولن تكونه . حتى الشذوذ نفسه أمر لا يمكن التعرف عليه، وهذا دودارد يعترف بذلك بقوله : « من يقدر ان يقول أين تقف القاعدة، وأين يبدأ الشذوذ ؟ » واذا كان الحال على هذا القدر من الالتباس ، فمن الممكن اذن تحويل الناس الى خراتيت ، وتحويل الخراتيت الى ناس ، في عملية تبادل مستمرة طويلة الامد طول التاريخ . غير ان الناس ـ على حسب ظن بيرانجيه ـ أفضل من الخراتيت . ها هو يؤكد ذلك بقوله : « الانسان افضل من الخراتيت » . الا ان هذا القول لا يقنع دودارد ، ولذلك يجيبه بقوله : « لم أقل انه لم يكن افضل . ولكني لا اعرف . التجربة وحدها هي التي تستطيع ان تقول ما تقول » (٤). التجربة وحدها هي الدليل القاطع ، وما عداها لا يعدو غير احتمالات وتصورات .

واذا كان الواقع خبيثا الى هذا الحد ، أليس من الخير ان يتخلص الانسان من هذا الواقع ، باللجوء الى عالم الخيال ؟

ان هذا ما تتطلبه الحال في الوضع الذي نحن فيه ، حيث الخطيئة تلطخ كل جزء من كيان العالم ، حيث الشر يعشعش في كل ركن من اركانه ، حيث انتفاء البراءة انتفاء تاما حقيقة ثابتة . وفي عالم مثل هذا مفموس في الخطيئة والشر والادانة لا يبقى من خلاص غير الفرار والعزلة والوحدة من اجل ان يبقى في الانسان اثر من آثار البراءة في عالم مدان ، عالم مريض ،كل من فيه مريض .(٥) الخراتيت في هذا العالم يزدادون باطراد ، ويقل البشر باستمرار ، ويضيع كل ما يذكر بالبشرية بدءا في زناخة الخراتيت وشبقها وحيوانيتها ووحشيتها، لم يعد الحب نفسه غير احساس مريض ينتاب الذكر والانثى على السواء . لم يعد يقارن بالقوة والفعالية الهائلة المنبعثتين من جميع تلك الحيوانات التي تحيط ببيرانجيه وزوجته ديزي . ولكن هذا الواقع المرعب الذي يتمثل في الخراتيت لا يستطيع ان يزعزع بيرانجيه من موطىء قدميه ، لانه لا يزال يؤمن بقدرته على المقاومة ، مقاومة الاغراء الحيواني الجارف ، اغراء الخرتتة الذي لا يدفع . انه سيقاوم ، ولن يستسلم ابدا ، وهو يقسم على اثبات حقيقته الانسانية باغلظ الايمان. اما اذا كانت الخراتيت ـ في نظر زوجته ـ كائنات جميلة ، فشأنها وما تظن ، انه يعرف انها حيوانات قبيحة تبعث على الاشمئزاز والنفور والقرف . وديزي تحسبها كائنات تشبه الالهة ، فمن المعقول ان تنحدر الى مملكتها وهكذا فعلت ، وظل بيرانجيه وحيدا في اطار انسانيته ،على حين تحول كل الناس وبسهولة عجيبة الى خراتيت ، خراتيت لن تستطيع الامساك بتلابيبه ، لان اعتماده على نفسه يحول بينها وبين ذلك ، لان انسانيته اقوى من جماع حيوانيتها ، وهذه الانسانية المميزة الفريدة تجعله يعلن عن حقيقته امام الخراتيت بكل فخر : .. لن تتمكنوا مني . لن انضم اليكم : انا لا افهمكم ! انا باق كما انا . انا انسان . انسان (٦) ».

صحيح انه يمكن تصوير الامر بصورة اسوأ ، لان ما هو اسوأ يمكن ان يحدث بسهولة ولكن الذي يعسر على بيرانجيه تصوره ان يبقى هو الكائن الانساني المسكين الوحيد في عالم المسوخ هذا . ان انقطاعه عن قطيع الخراتيت فت في عضده ، وجعل الشكوك تتسرب الى نفسه ، ها هو ذا لا يعرف ما يقول فهل يفهم ما يقول ؟ وماذا لو كانت ديزي على صواب وكانت الخراتيت محقة،وكان هو وحده على باطل(٧)؟ ماذا لو كان الامر كذلك . ان الشكوك التي اخذت تحوم حوله وحول رأسه حملته حملا على ان يفتش عن نفسه ، لانه لم يعد يعرف اين هي ؟ هل هي في جلده الذي يتلمس ؟ او في الصورة التي يتملاها محدقا محملقا ؟ او انه لم يعد هو كما كان ؟ او المسألة كلها كابوس حلم ثقيل ، شديد الوطأة ، صريع ؟ لقد اراد ان يصمد ، فليتقبل عواقب صموده برحابة صدر . ان الشك الذي يمزقه الان ويجعله يقول: « كان يجب ان اذهب معهم في الوقت المناسب . ولكن الوقت متأخر الان . » هذا الشك هو نفسه الذي يتحول الى يقين ثابت حين يقول مدافعا عن نفسه متحديا جميع الخرانيت : « سأحاربهم جميعا ، انا الانسان الوحيد المتبقي . انا باق الى النهاية . لن استسلم مطلقا !» وهكذا نجد في تمسك بيرانجيه بانسانيته بصيص امل ، بعد ان يكون ليل الحيوانية قد لف بظلاله السود كل البشر ، لانهم لم يستطيعوا ان يصمدوا ، كما صمد هو .

اما انسان يونيسكو في (الكراسي) فيمثله الشيخ والعجوز في غاية الوضوح والجلاء . ان الزمان ، فيما مضى من الايام ، كان مضيئا في الاربع والعشرين ساعة من اليوم ، في اية ساعة من تلك الساعات ، ولكنه مظلم الآن في كل الساعات .. فلماذا حدث هذا ؟ تتساءل العجوز عن هذه الظاهرة فيجيبها الشيخ « .. ربما لاننا كلما غذذنا السير ، انحدرنا اكثر فاكثر في الهاوية ، ان سبب كل ذلك يعود الى الارض ، التي لن تتوقف عن الدوران ..(٨)» والزمان السخيف الذي طمس معالم الدنيا جعل الشيخ ينسى الطريق الى ما كان يدعى باريس ذات يوم . لم يبق من تلك المدينة شيء سوى اغنية ، لقد انجرف كل شيء تحت ذلك الجسر العظيم الاسود ، جسر الزمن . تغير وجه باريس ، انطمست آثارها ، غدت كومة من الطفيليات . وهنا يتلاعب يونيسكو باسمي (Paris) et (Paradise) ليحولهما الى كلمة (Parasite) التي تعني الطفيليات ، ومن ثم ليجعلها بالمعنى الذي يريد بعبارة (Parasite Lost)في مكان(Paradise Lost)وهي قصيدة ملتون المشهورة (الفردوس المفقود) ، وبهذا التشويه يضرب يونيسكو عصفورين بحجر واحد ، وقصده من ذلك واضح ، فيه سخرية كاوية لا تخفى على احد ..

ومن الامور الجديرة بالانتباه محاولة العجوز ، زوجة الشيخ ان تصبح امه ، ولكن الاخير يرفض هذه الامومة رفضا قاطعا متعللا بيتمه مصرا على هذا اليتم . الام المزعومة تجهد ما وسعها الجهد ، ان تكون حواء في جنة عدن ، وان يكون هو ابنها ، تستطيع ان تسمع اليه وتراه ، بين الرياحين والازهار ، لكن الشيخ يرى خلاف ذلك ، فالعجوز عاجزة عن رؤيته ، عاجزة عن سماعه ، ذلك انها ليست امه ، في الواقع ، فهو كان ـ طوال حياته ـ يتيما .. وبسبب يتمه هذا لا معنى لوجود امه تلك . العجوز ترى في الشيخ رسولا ، يحمل رسالة

---

(١) مسرح اللامعقول : مارتن ايسلن .
(٢و٣و٤) ـ الخراتيت
(٥) الخراتيت : الترجمة الانكليزية .
(٦و٧) الخراتيت : الترجمة الانكليزية .
(٨) الكراسي : الترجمة الانكليزية

للانسانية (لانه لم يحطم كل شيء ، لان املا مـا لا يزال حيا) فـلا بد ان يعيش الشيخ من اجل تلـك الرسالة ، وحملهـا الى الاجيـال الصاعدة . الشيـخ لا ينكـر ذلك ، بل يوافق عليه من كل قلبه ، لانه يستطيع ان ينجب رسالة عظيمة لكل الناس ، وللانسانية جمعاء (١) . الواجب المقدس يقتضيه ذلك ، اذ ليس من حقه ان يحتفظ بهـذه الرسالة لنفسه ، عليه أن يعلنهـا للانسانية ، ان كل انسان ينتظرهـا بلهفـه ، الكـون باجمعه ينتظره . اما الافكار فيمكن ان نجدها اذا مـا نحـن انغمسنـا في الكلام . يمكننا ان نجـد انفسنا والكلمـات كمـا نجـد الافكار . واذا ما وجدنـا ذلك كله وجدنـا المدينة والحديقـة ، وربمـا عاد لنـا كل شيء ، فلم نعـد ايتاما . على هذه الشاكلة ،كانت العجوز قادرة على التفكير المنطقي ، متمكنة من الاقناع ، مبرزة في اصول المحاكمة العقلية ، مؤثرة الايحاء ، بحيث لم ير الشيخ مفرا من الاقرار برجاحـة عقلهـا ، واحقية منطقهـا ، وصواب رأيها .. لكن الشيخ ـ مع هذه القناعة ـ عاجز عن الحديث لضعفه ووهن لسانه ، فـلا بد لـه اذن ان يستاجـر استاذا للقيام بهذه المهمة ، بدلا منه . اما الجمهور ، فطبعـا لا ينبغي ان يكـون جمهورا من الناس الاعتياديين ، الجمهـور حتمـا يتضمـن الشخصيات واصحاب الاملاك والمصانع والعلمـاء ... علية القوم الذيـن هم اهل بالرسالة التي يتحدث عنها الشيخ بكل ايمان بقولـه : « كنت احمق طوال حياتي ... والان سيعرفون كل شيء ، فشكرا لك وللخطيب ، فانتمـا الوحيدان اللذان ادركتمـا ما يدور في خلـدي (٢) ».

ان الرسالة التي يتبرع بها الشيخ لابلاغها الى العالم رسالـة غريبة ، ولو كـان فيهـا كل الايمـان وكل الثقة بالحقيقة ، ذلـك ان خواء شخصية الشيخ تحول دون هذه الرسالة وامتلاكهـا لاي معنى من المعاني الجادة . ولو كان الشيخ والعجوز صادقين مع نفسيهما ومـع واقعهمـا ، لتبدت الرسالة على حقيقتها ، حقيقتها المرة الكئيبة ،التي تخاف من النظـر الى الحقيقة الموضوعية ، وتخشى ان تكـون هـذه الحقيقـة الموضوعية هي الواقع الشاهـد على تفاهـة الزوجين ،وقماءة وجودهـما ، وتفاهـة الرابطـة التي تربط بينهمـا . صحيح انهمـا يتوهمـان الحياة كمـا يحلو لهمـا الوهم ، ويتصوران انهمـا قادران على اداء امر مـن الامور ، والقيام بدور من الادوار ، ويتذكران ماضيهما على النحـو الذي يريـدان ، وصحيح ان الوهم يفسح لهمـا مجـالا للتسلية والعبث والتأمل .. لكن ذلك كلـه لا يعنينا من دراسـة شخصيتهمـا ـ على ضوء الواقع ومن خلاله . فالشيخ « كائن تافه مقتنع مـع ذلك بانه متميز عـن سائـر البشر لان لديه ـ دونهم ـ مثلا اعلى للحياة . انه ينظـر الى نفسه نظرة عاليـة جدا .. ويظهر بمظهـر الراضي عن نفسه في تفـاؤل احمق ، ولانه ارفع شأنـا من سواه ،فانه يظـن ان الناس لا تفهمه ، وان الحيـاة لم تقدم له الفرص التي كـان يستحقها (٣) »

اما شخصية العجوز فهي لا تقل عـن تفاهـة عن شخصية الشيخ، في سطحيتها وهوانها ، وغرارتهـا ، وتشبثها بالاكاذيب والاوهـام ، ولكنهـا مع ذلك تحتفظ بميزتي الزوجة والام بكل ما تستطيع من قوة. ولذلك فهي لا تنـي تشجع زوجها ، على غفلته وغشاوة بصره ، وتأخـذ بيديه ، في طريقه الذي يسلكه . اذا ما وهنت قوته ، وضعفت ثقتـه بنفسه واصابه الخذلان ، وبذلك تجمع بيـن شخصيتي الام والزوجـة جمعـا فيه شيء من الحرارة ، في صقيع حياتهمـا الراهن ، وزمهرير سجل زواجهمـا الماضي وما اكتنف تلـك الحياة من عواء الرياح القطبية التي تمـلأ خواء واقع وجودهمـا والتي لا تزال تهب بعنف في وجوهنا فتصفعهـا صفعـا مؤلما اشد مـا يكـون الالم ، ان ذلك الفراغ الـذي يملأ جوانحنا رعبا يكشر عـن انيابه ، فنتصوره غـولا في ذلك الحـوار الذي يتجاذبه الشيخان بقولهمـا وهمـا يواجهان اول وافد عليهمـا ، بعد طول غيبة ، ومذلـة عزلـة :

الشيخ ـ اننا نعيش منعزليـن .

العجوز ـ دون سخط على المجتمع ، فان زوجي يحب العزلة .

الشيخ ـ عندنا راديو ، وانا امارس رياضة الصيد بالصنارة ، ثـم هناك خط مواصلات ، ولا بأس بنظامه .

العجوز ـ يوم الاحد يسير مركبان في الصباح ، ومركب في المساء، عـدا المراكب الخاصـة .

الشيخ ـ وعندما يكـون الجو جميلا ، يطلع القمر .

العجوز ـ انه يضطلع دائمـا بمسئوليات القائم على الدار .. وهذا يشغله . حقا ، في مثل سنه .كان يستطيع ان يستريح .

الشيخ ـ وفي الشتاء ، شائق بجوار المدفـأة . وذكريـات حيـاة باكملهـا .

العجوز ـ حياة متواضعة ، ولكنها مليئة (٤) .

فما هي هذه الحياة الكاملة المتواضعة الثرة ؟ انهـا العجز والزيف والانانيـة ، وفقدان الطمأنينة ، والرتابـة والشعور الاسيان بالغربة ، والتمزق هذه الآلية وجفاف معين الحياة ، والتدهور فـي مهـاوي العزلـة القاتلـة .

وازاء هـذه الآلية يتحدث الشيخ الى السيدة (لقلبي) عن ماض سحيق ، جميل ، بلغـة رفيقة ، برومانسية شيقـة فيقول : « حيـن كنا شبابا ، كـان القمر كوكبا حيا ». آه لو كانت لدينا الجرأة .. انريديـن ان تعيشي الايام الطويلـة الضائعة مرة اخرى .. هل نستطيع ان نعـود الى الوراء ؟ .هل نستطيع ؟ آه ، كلا كلا . لم يعد في قوس الزمن منزع . انطلق الزمـن مارا بنـا كالقطار ، تاركـا خلفه خطوطـا على جلودنا .. لقد فقدنا كل شيء (٥)» .ان هذا الشعور بالفقـدان ، فقـدان كل شيء ، انطلاق نفسية سليمة تعبر عـن ذات معذبة حقـا، تنطق بمـا في دخيلتهـا بصراحـة واخلاص وصدق . غير ان الشيخ هو سرعـان مـا يعـود الى ذاته الثانية ، الذات الزائفة المعقدة ، ليستقر في شرنقتهـا آمنا مطمئنا ، معوضـا بذلك عمـا فقـد واضاع ، عن تلك الايـام التي ذهبت هدرا . فيروح يعلل نفسه موكدا شخصيته الزائفة، مصرا على هـذا التوكيـد فيقول : « ان ما انقذني هو الحياة الداخلية والبيت الهادىء ،والتقشف ، وبحثي العلمي ، والفلسفة ورسالتي (٦)».

ومع ذلـك ، فان الشيخ يعترف بان ما تبقى لـم يعـد غير الحـزن والاسف والندم ، وهذا الذي بقى تصفه العجوز ابلغ الوصف حيـن تتذكـر ما جرى لهـا مـع الطفل الذي فقدته والمناجاة الفاجعة التـي تبادلتها مع ذلك الطفل فتقول على لسان الطفل !« هل تسمعين الطيور وهي تغرد ؟ لتجيب : كـلا لا استطيع ان اسمع غير النحيب والانيـن.. السماء قاسيـة يلطخها الدم .. كلا ، يا طفلي السماء زرقاء .. ويعود مرة اخرى ليصرخ :لقـد خدعتيني .. احببتك كثيرا ظنا بانك خيرة.. الشوارع ملأى بالطيور الميتة التي قلعت اعينهـا .(٧) ومن اجـل ان يهون الشيخ عـن فجيعـة زوجته ، يرى لزامـا عليه ان يتحدث عـن وفاة والدته ، والدته التي ارادت ان تتشبث به وهي في النزع الاخير، وحيدة تجود بانفاسها في حفرة من الحفر ، دون ان يلتفت اليهـا لانـه كـان فـي طريقه الى حفلـة رقص وكـان الوقت ضيقـا لا يسمح لـه بالالتفات . انه يعرف . يعرف ان هذا مـا يحدث دائما . ابناء يتركون امهاتهم ، واخرون يقتلون آباءهم ، هكذا هي الحياة ، ولكن مثل هـذه الحياة تعذبه ، اما الآخرون فلا يهم امرهم في شيء . وطبيعي ان تكون هذه اللامبالاة ، بما فيهـا من خسة وسفالة ، الطابع المميز للمجتمع الآلي ، الذي فقـد كل مقومـات وجوده الانساني ، لانه استعاض عنهـا

(١،٢) الكراسي : الترجمة الانكليزية .

(٣) مسرح الطليعة ـ ليونارد كابل برونكو ـ ترجمة يوسف اسكندر

(٤) نقلا عـن المصدر السابق .

(٥و٦و٧) الكراسي : الترجمة الانكليزية

بصلات ميكانيكية حجرت المشاعر ، ومزقت الصلات الفطرية بين اعضاء المجتمع ، وقضت على روح الجماعة ، لتحل محلها روح القطيع الحيواني ، الذي لا يعرف التمرد ، لان غريزة الحياة تفرض عليه الطاعة فرضا . وبدافع هذه الطاعة تنتفي السمات الانسانية انتفاء تاما ، حتى الميزات الفردية تصبح هباء ، سديما مرتبكا، معدوم القسمات . ولذا نرى العمى الروحي مسيطرا على الانسان سيطرة تجلب النظر الى حد ضياع معالم الهوية نفسها ، هذا الضياع الذي تجده العجوز بقولها وهي تخاطب زوجها :« .. لا استطيع رؤيتك ، اين انت ؟ من هم ؟ ماذا يريد كل هؤلاء الناس (١) ؟» وهذا العمى هو من نصيب الشيخ ايضا ، فلذلك لا يعرف ابن هي زوجته ، ومع اصراره على فكرة التقدم ، بالرغم من بعض التراجعات ،وايمانه بان استغلال الانسان للانسان يمكن رفعه عن كاهل الانسان بالمال،فهو ينسى نفسه وهويته ، ها هو ذا يعترف بذلك فيقول :« انا لست نفسي، انا شخص آخر ». وكيف لا يقول ذلك ، وهو الذي يجعل كرامة الانسان في قفاه ، لان وجهه لم يعد الوجه الطبيعي المألوف ، لان انقلاب الموازين حول الوجوه الى اقفية .

اما فشل الانسان في تحقيقه اهدافه فيعبر عنه الشيخ تعبيرا ملموسا بقوله : « جربت الرياضة .. تسلق الجبال .. غير ان رجلي لم ينهضا بي .. وحين جربت تسلق درجات السلم وجدت الخشب منخورا .. وحين رغبت في السفر منعت من الجواز .. وعندما اردت عبور النهر تهاوت الجسور .. حاولت عبور (جبال) البرنيز ، ولكن البرنيز لم تعد هناك » . ومع ذلك فان الشيخ لم يفقد الامل في انقاذ الانسانية ، اذ ان في الوقت متسعا ، وبخاصة والخطة جاهزة، ولكن المشكلة الرئيسية تبقى مشكلة التعبير عن الذات .

وهذه المشكلة هي جوهر مسرح يونيسكو ـ فيكل ما تصدى له من موضوعات رئيسية وفي كل ما عاناه من مشقة ورهق وانهاك . ذلك « ان الكلمات لم تعد تستطيع ايصال المعاني ، لانها لا تعير اهتماما للصلات الشخصية وتداعيها ، وما لها من وشيجة بكل فرد» ولذلك فقدت اللغة كل مقوماتها ، التي وجدت من اجلها ، واصبحت عبثا مرعبا ، كيانا متداعيا ، وجودا غير معقول وغير مفهوم ، تلاشت فيه السمات الفردية ، لتحل محلها سمات غريبة مسطحة عسيرة الادراك، غشاوة من الكلمات العديمة المعنى ، رطانة متمدنة مدنية انكليزية حديثة كما في (المغنية الصلعاء) محادثة خشنة بلهاء . مبتذلة ، متهافتة ، نخرة متآكلة ولغة ـ على هذا الشاكلة ، وعلى هذا القدر من البشاعة ، تليق بشخوص يونيسكو وموضوعاته الرئيسية ، وهو يستخدم كل تشويهها ـ لهذا الغرض ـ من اجل الملاءمة بين موضوعاته وشخوصه ، والبيئة التي يتحركون فيها .

يتحدث ايسلن عن هذه الموضوعات بقوله :« الموضوعات الرئيسة التي تتكرر في مسرحياته تتناول وحدة الفرد وعزلته ، وصعوبة اتصاله بالآخرين ، وخضوعه للضغوط الخارجية المهينة وانسجامه الآلي بالمجتمع، وكذلك اذعانه للضغوط المذلة الداخلية التي تفرزها شخصيته (٢) » . وكل ذلك نتلمسه واضحا كل الوضوح في « الجنس وما يترتب عليه من مشاعر الاثم ، والقلق المنبعث من غموض هوية الانسان نفسه ، واحقية الموت .» وهكذا فان الوحدة التي تلف شخوص يونيسكو تجعلهم غرباء لا عن مجتمعهم المفروض ان يكونوا فيه اعضاء حسب ، بل عن انفسهم كذلك ، وهذه الوحدة المضاعفة هي السبب الرئيسي في عذاب ابناء طريق الآلام عذابا لا يمكن ادراكه او سبر غوره ، او مجرد التطلع اليه ، وتحسس مظاهره ، لانه عذاب ميتافيزيقي ، من نوع جديد ،قديم، لا تتمكن الكلمات من التعبير عنه ، ولو كانت كلمات يونيسكونفسه، ومن هنا تاتي مشكلة يونيسكو وتتعقد .

انه عذاب الشيخ وهو يعتقد واهما انه قد ادى رسالته على اكمل وجه ، وهو ـ في مواجهة الكراسي الفارغة والامبراطور الموهوم والخطيب الابكم . انه عذاب العجوز التي لا تزال تؤمن ، بان لها حظا من الحظوظ ، في عالم الشقاء هذا ، في عالم اليأس المطلق الذي تعيشه مع زوجها ، حظا في ذاكرة الامبراطور الابدي الذي سيتذكرهما دائما ، وحظا في شارع سيحمل اسميهما ليخلدهما رغم انف الزمن . وهذان الزوجان الخالدان ، في ضميريهماووجدانيهما في الكراسي الفارغة ، والامبراطور الموهوم ، والرسالة الانسانية التي لن تبلى ، سيبقيان مثلين بارزين على تفاهة الانسان ، وخيبة امله، وتضعضع العالم ، وعدم جدواه ، وخواء الوجود من معناه ووحشة الكون ، وعشوائية ظاهرة الحياة ، هذه الظواهر ملموسة جميعا في مسرح يونيسكو . الا ان ايسلن يهون من هذه الظواهر ليبرر موقف يونيسكو تبريرا اخلاقيا ، وهو ـ لذلك يركز على ظاهرة المجتمع البرجوازي ، ليجعله هدفا لسهام يونيسكو ، والى ذلك يشير بقوله: « مسرح يونيسكو له موضوعان رئيسيان اثنان يتواجدان معا في المسرحية نفسها . واقل هذين الموضوعين اهمية هو الاحتجاج على موات الحضارة البرجوازية الآلية الراهنة، وفقدان القيم الحقيقية المحسوسة وما يترتب على ذلك من مهانة الحياة » (٣).

اما جورج .أ.ويلورث فيرى في مسرح يونيسكو غير هذا الرأي لذلك فهو يقول : « يركز يونسكو اساسا على ان يرى جمهوره العزلة المشتركة المتبادلة بين البشر وخلو حياتهم اليومية ، التي تشكل جل وجودهم على هذه الارض ـ من اي معنى (٤) يعزز ذلك يونسكو نفسه بقوله: « انني احس انني لا انتمي الى هذا العالم على الاطلاق ، وانا لا اعرف لمن ينبغي ان ينتمي العالم » .

ومما له دلالته ان هذا اللاانتماء له خلفية فلسفية . عند يونسكو فهو يضرب في بيداء العدمية ومن خلال هذه العدمية يتأمل الاشياء تأملا معكوسا يبلغ به من الحدة ان يفكر في وجود نفسه وصعوبة تحديد هذا الوجود . انه يقول مثلا :« انا موجود ، ولكن ما هذه «الانا» .. فان هذا شيء « بصعب تحديده » .

وهذا الغموض ينتقل من نفسه الى معتقداته ليحولها الى رفض لكل الاسباب والمسببات ، الى نبذ للعلية بصورة مطلقة ، ها هو ذا يقول : « انني اعتقد انه لا سبب لاي شيء ، واننا مدفوعون بقوة لا نستطيع ادراك كنهها . فلا شيء له سبب ، كل شيء في داخلنا قابل للشك والمناقشة » . وحتى الاشياء الخارجية « التي هي غير قابلة للدحض « ليس لها سبب للوجود او عدم الوجود » (٥) في نظره. ومن هنا يمكننا تلمس الرابطة بين هذه الفلسفة وبين فلسفةالعبث التي يلخصها ويلورث بالاستناد الى البيركامي بقوله : « الانسانيعيش في العالم ولكنه لا يفهم هذا العالم كما لا يفهم دوره فيه ، وهو (الانسان) غريب مقطوع الصلة بما يبدو له في خواء غير مفهوم . والانسان يتحرك في هذه البيداء بان يخدر نفسه حتى يساير الواقع بعقائد معسولة مزيفة وبان يلقي بنفسه في خضم روتين » (٦) .وتبعا لفكرة الخواء هذه ، يستطيع نيكولاس بطل (ضحايا الواجب) انيقول: « نحن لسنا انفسنا . الشخصية لا وجود لها .. الشخوص يقنع اشكالها في الصيرورة التي لا شكل لها . كل شخص هو نفسه كما هو غيره » . ذلك ان « الشعور هو اللاشيئية نفسها » . ان الانسان لا شيء لانه له الحرية في الاختيار ، وعلى ذلك فهو موجود من خلال عملية اختيار نفسه ، موجود على صورة احتمال مستمر ، لا على صورة كيان واقعي (٧) » .

---

(١) الكراسي : الترجمة الانكليزية .

(٢) مسرح اللامعقول : مارتن ايسلن .

(٣) مسرح اللامعقول : مارتن ايسلن . (٤) التحذير في مسرح العبث عند يوجين يونسكو : جورج ويلوورث : ترجمد د. سامية اسعد : ملحق مسرحية (الجوع والعطش) ليونسكو . (٥) الكاتب ومشكلاته : يونسكو ترجمة : فاروق عبدالوهاب (٦) التحذير في مسرح العبث (٧) مسرح اللامعقول : م . ايسلن .

وهذا التفسير لفلسفة يونيسكو تحتم ان نفترض وجود صلة لها بفلسفة سارتر ، ولو على شكل غير واع كما يذهب ايسلن الى ذلك في تعليله المار الذكر . ومما يؤيد هذا الافتراض تحليل حالات الشعور في مسرح يونسكو ، فهو يتصدى لهذه الحالات بقوله (: .. في جذور جميع مسرحياتي شعوران اساسيان : هما (فكرة) التلاشي من جهة والثقل من جهة اخرى ، الفراغ والحضور الزائد عن الحد ، شفافية العالم اللاحقيقية ، وكثافته اللاشفافية (الكمداء) .. ان حس التلاشي يستتبعه شعور بالفجيعة ، بنوع من الدوار .. وهذه الفجيعة تنتهي بان تتحول الى جرية (١) » . ومن طريق ربطنا بين مفاهيم التلاشي والثقل والفراغ ، ولا حقيقية العالم والفجيعة والحرية ، نتوصل بسهولة الى حقيقة واحدة مؤداها : ان هذه المفاهيم مفاهيم وجودية صرفة ، ولو لم يختر لها يونسكو هذه التسمية ، ولو حاول ان يفلسفها على طريقته الخاصة واسلوبه الذاتي الموغل في العدمية . كل ذلك لا يؤخر ولا يقدم في الامر شيئا مذكورا .

ومن اجل ألا يجانبنا الانصاف فيما ذهبنا اليه من رأي، علينا ان نبحث عن هذه المفاهيم مجسدة في ثنايا زبدة مسرح يونسكو اعني بها مسرحيته (الجوع والعطش) وفيها سيكون دليلنا (جان) الذي يمثل فكر يونسكو احسن تمثيل واصدقه واشمله . المسرحية تتالف من ثلاثة احداث : ١ ـ الهرب ٢ ـ الموعد ٣ ـ القداس الشيطاني في فندق الترحاب . ففي الحدث الاول نجد جان يعيش في منزل كئيب رطب، مع زوجته ماري والعمة اديلابيد . اول ما يواجهنا من مشاعر جان هو الكابوس الذي يعذبه ، الكابوس الذي يخنق انفاسه ، والاحلام التي تدك صدره ، الاحلام التي تعبث فسادا في (المساكن البغيضة المليئة بالوحل ، التي يبتلع الماء نصفها ، وتبتلع الارض نصفها) ومع ان غالبية المنازل هي صورة طبق الاصل لمنزله . على ما ترى ماري .. فان سكانها معتادون عليها .. انهم معتادون عليها « لانهم يتلذذون في الوحل ، ويقتاتون منه » ماري قانعة بما اصابها من حظ ، ما دامت تحيا مع جان ، وما دامت العادة طبيعة ثانية . اما هو الذي «يعيش في الفسق او الليل » فلا يحب دون الفجر شيئا اخر . انه « لا يستطيع ان يحيا الا في انتظار شيء ما » في انتظار شيء خارق ، عجيب، اعجوبة من الاعاجيب مثلا . ذلك انه كان يحيا على امل العثور على الثلوج والبحر والجبال والبحيرات الصافية . فاذا به يجد السقف الذي يعلو رأسه ويتفتت ويهبط) فيحس به وقد بدأ يثقل على كتفه (اهذه) اذن (صورة الزمن ؟) اذ (ينهار كل شيء بصورة مذهلة) وطبيعي ان تكون لهذه البداية المرعبة ثقلها على نفس جان) لذلك نراه يتأود بحمل الحياة اذ يقول :« من ذا الذي سينسيني انني احيا؟ انا لا استطيع ان احتمل وجودي ! وكيف لا تكون الحال كذلك ،وهو كلما فتح عينيه لم يتبين غير العفن والخراب ؟ واذا كانت احلامه تذكرة باعماق ماضيه ، فان هذه (الذكرى تثقل كاهله، بالقدر الذي تثقل به عليه هذه الجدران وهذا السقف الهابط » . وهذا الثقل لا يتحدد بشيء كما يتحدد بقوله :« اني اشعر بالبرد والحر والجوع والعطش ، ولا شهية لي ولا ميل الى اي شيء » ماري تريد ان تحول الحاضر الى شمس والمستقبل الى سماء زرقاء وتريده ان يخترق الجدران كما اخترقته ليرى الافق الذي رأته . اما هو فتعصر الفجيعة قلبه، فجيعة الفراغ ، الفراغ الذي حل محل الندم والاسف والشفقة، وقتل الحنين والتضامن مع المعذبين . من اجل ذلك كله فمن حقه (الا يحتمل رؤية نفسه في المرآة التي تعكس صورة قبحه) . وهذا التعب الذي اجهده اجهادا مريعا ، ماذا يقول جان عنه ؟ يقول : « هذا التعب . الذي يعوقني، رجلاي مخلخلتان . ورأسي ثقيل . والخوف تملكني مرة ثانية » . فمن حق ماري اذن ان تتخوف من التعب، وان تخشى الموت الذي يبعثه التعب والخوف ، باصرار كل يوم وكل ساعة..

ان جان لا منتم ، وغير قابل للانتماء ، ولذلك فهو يصر على موقفه من الاخرين بقوله : « لا اريد ان اكون مثلهم . لن اغوص مثل الاخرين ولن استسلم . مصيري غير مصيرهم . ووجودي في مكان آخر . » ها هو التعب ينصحه بعدم الرحيل ، وها هي الشيخوخة تتشبث باذياله لكي يبقى حيث هو ، وها هو الحذر ينذره بالالم ، وتذكره الطيبة بمغبة الشر . و(الواجبات ؟ والالتزامات ؟ وهذا الود القديم الراسخ ؟ والعقل؟ كل هذه الحجج لن تتغلب عليه ولن تحول دون ما يريد وما يقصد من الهرب الى (بلد يحرم فيه القانون الموت .) حيث ينعدم فيه الموت بموجب ذلك القانون .

جان بعيد عن الآخرين بعدا مأساويا عنيفا ، وبعده هذا له اسباب مقنعة تبرره وتوكده وتعززه . انه لا يريد ان يكون كالاخرين همزة وصل بين اجزاء الآلة الواحدة ، دلالة من دلالات وجود هذه الآلة ، فليكن اذن شيئا اخر ، ليكن جدارا قديما او شجرة بلوط عتيقة كما يحلو لماري ان تراه : لماذا لا يريد ان ينغرس ؟ كيف لا يرضى بان تغطيه الطحالب واللبلاب ، وكأنه جدار قديم ، او شجرة بلوط عتيقة بجذورها الممتدة في اعماق الارض » . اما هو فلا يرى معنى لذلك غير التجمد في آلام الاخرين ، غير الارتباط باواصر الآخرين ، تلك الاواصر التي ينبغي حلها والا ضاعت شخصيته ، قيمته ، هويته ، ولم يبق من وجوده شيء ذو بال . ها هو جان يصر على تفتيت الروابط بقوله : « اني احل الروابط ، وافك العقد، وادفن الذكريات حتى لا تدفنني ، والفظ الذاكرة ، ولا احتفظ منها الا بما يكفي لاعرف من أنا (١) » . وهذا يعني ان جان لا يريد شيئا غير المحافظة على روح الفرد (النقية) من عدوى الوباء الاجتماعي ، وماديته الرذلة ، وهذه السمة الرئيسة ـ في مسرح يونسكو ـ هي التي يشير اليها برونكو اشارة جلية بقوله : « يدين يونسكو بوضوح مادية المجتمع الخسيسة في هؤلاء الاشخاص الذين لا يفسحون اي مكان لروح الفرد وانما يؤكدون ـ اظهارا لحسن الادراك ـ ان على كل شيء ان يأتي بنتائج مادية (٢) » وهذا امر طبيعي ، في مجتمع آلي، يحول الروح الى شيء من الاشياء ، بصب الحياة في قالب واحد والقبول بهذا التحويل قبولا طوعيا او جبريا . وهذه الآلية الطوعية يفسرها لنا برونكو تفسيرا دقيقا بقوله : « ان من يفرض على حياته ان تنصب في قالب معين ، وتقبل دون تمحيص معتقدات معينة، مضطر الى ان يتصرف تصرفيا آليا (٣) . ولما كان جان عدوا لكل القوالب الجامدة والمعتقدات المعينة ، ولما كان جان لا يرغب في شيء رغبته في ان يبحث عن حريته المفتقدة ، ووجوده الحي ، الذي لا يعرف اين هو ، وذاته التي فرت من اهابه ، فانه لا بد ان يتوجه الى (الوديان الشتوية .. والريف .. والتلال .. فوق القمة العالية .. (حيث) يوجد القصر .. وسط الروض المشمس . من هناك .. يلمح المرء المحيط والسماء مجتمعين .) ... .

وفي (الموعد) نجد جان قد وصل الى ما كان يرنو اليه ، وحين يسأله الحارس الاول عن الجهة التي اقبل منها ، تنقض الحيرة عليه لتعقد لسانه فيتلعثم ثم يقول الحق انني لا اعرف بالضبط من اين جئت « فانا لا اعرف كيف اجد وجهتي » الا ان هذه الحيرة تتلاشى عندما يتذكر البلدان التي كانت تحتضنه فيقول :« جئت ، بكل تأكيد، من بلدان ممطرة ، مظلمة ، عتمة » .. انه اراد ان يهرب من الفوضى ، بحثا عن الحياة والفرح والكمال ، ولكنه لم يجد غير العذاب . عذاب انتظار امرأة ، ستأتي يوما ما ، ولكنها تماطل وتسوف وتكايد ، فاذا العذاب يطول ، ويتمطى ، ويتطاول على نفسه ، واذا به يبقى فريدا في ارض الميعاد ، لا يجد اثرا للمرأة التي تخيلها على ذلك القدر من النبل، وتصورها ، على ذلك القسط من الجمال ، انه يعود الى نفسه

---

(١) شواهد (الجوع والعطش)من ترجمة د:. سامية اسعد .
(٢و٣) مسرح الطليعة : ل. ك. برونكو : ترجمة يوسف اسكندر .

ليجدها كما كانت ركام انسان محطم ، انسان معذب ، يتمنى ان يكون كلبا اجرب كما كان يتمنى ، ها هو ذا يذكر مرارة الكينونة الانسانية بقوله :« لو انني كنت كلبا اجرب ، على الاول ، لو انني كنت قطة مريضة ، لما فات النفوس الطيبة ، ولما فات النسوة الطيبات ان يشفقن عليّ ويأخذنني ويداوين جراحي . وأسفاه لست سوى انسان، ولا يمكن الاشفاق على الانسان ، لان الم الانسان شيء مضحك في نظر الانسان » . غير ان الحارس الثاني يعلل انتفاء الشفقة تعليلا معقولا اذ يقول : « كلهم يلتمسون الشفقة . كل واحد يطلبها لنفسه ، ولا يقدر احد على اعطائها للاخرين » .

وعندما تغلق ابواب الامل في وجه جان ، فلا يعود يرى غير السهول الكئيبة الخاوية والمستنقعات ، يهون الامر لو اقتصر على الطبيعة الخرساء ، ولكن (قلبه الجريح الذي يشبه حيوانا جريحا يمزقه بمخالبه وهو يحتضر . وكذا معدته التي هي فجوة بلا قاع ، وفمه الذي هو هوة ملتهبة الحوافي) . صحيح ان الحياة لا مبرر لها ، كما يقول الحارس الثاني ، الا ان جان وجد في الجنون مبررا لكي يحيا، ومن اجل ذلك تعلق به وادمى يديه .(لكن الجنون لا يفيد ، طالما لم يصبح ليلا كاملا ، طالما لم يبتلع العقل » .وحين يجد الحارس الثاني ان جان لا يزال يتعلق بالحياة بقوة ، مفضلا الجنون على صواب عقله، لا يرى مناصا من مطالبته بمغادرة القلعة ، فما يكون من جان من حيلة غير الامتثال ، والبوح بما في دخيلة نفسه ، بصراحة ما بعدها صراحة انه لا يجد بأسا من القول : « اني حي مثل الجرح الحي . اني ذاهب .. سرت زمنا طويلا في الطرقات لاغزو العالم . ووجدت الطرقات ، ولم اجد العالم » . لقد اراد شيئا ، وارادت الطرقات شيئا آخر ، فضاع العالم من بين يديه . اما الحدث الثالث ، في فندق الترحاب ، حيث الدير ـ السجن ، الذي يقام فيه القداس الشيطاني ، فهو يقدم لنا صورة متكاملة فاجعة اشد ما تكون الفجيعة لنفسية جان . انه يحدث الرهبان عن كل شيء ، عن سهل الحياة الكئيب الخالي ، عن (الناس الذين ينامون ويستيقظون، ويتكلمون ثم يصمتون ، ويتمددون ولا يتحركون ، ويغيبون عن الانظار)

وعندما يجابهه الراهب تاراباس بالسؤال الملح عن حقيقة نفسه ، يجيبه بكل صراحة : « صور متشابهة . سهل موحش ، سهل قاتم، سهل موحل ، سهل لا نهاية له ، او ممرات لا تؤدي الى اى مكان .. ثم انتشر الضباب » .

اذا كان ممكنا ان نقول شيئا عن نفسية جان ، فليس الا ان نتصورها بابا يتلظى عليها الجدب والجفاف والملل بدأب واستمرار ورعونة : ها هوذا جان يتحدث عن ذلك اليباب بقوله : « كان كل ما رغبت فيه يختفي عندما اقترب منه ، وكل ما اردت ان المسه يذبل. كان القيم يكسو السماء حالما كنت اتقدم في مرعى مشمس . كانت الحشائش تحف تحت قدمي . واوراق الشجر تصفر وتسقط حالما انظر اليها .. » غير ان جان يقف حائرا امام هذه الظواهر التي تنعكس في نفسه لتنقل اليباب الى نفسه ، فاذا به يتساءل بمرارة أكالة: « لم هذا الجوع المفاجيء ؟ وهذا العطش المفاجيء ؟ وعدم الرضا .. والقلق ؟ لماذا هذا الفراغ الذي لم يتوقف عن الاتساع والتعمق .؟ لم كانت الظلمة ؟ هل كان عليّ ان اتحملها ؟ ام كان عليّ ان استسلم؟ ام كان عليّ ان انتظر ؟» ..

واذا عرفنا ان هذه الاسئلة هي اسئلة يونسكو التي يتفق في طرحها ـ على مدى مسرحه كله ـ فان من حقنا ان نبحث عن اجوبة عنها في ثنايا هذا المسرح نفسه . ان الجوع والعطش متلازمان عندما تتحول المدينة كلها الى غابة من نيران حيث « كل ما فيها يتقد بالنار » الشوارع تتقد ، تتقد باللهب . النار تجتاح الشوارع والبيوت، موجة اثر موجة ، والهواء قد جف واحرقه اللهب ، والتراب الاحمر تسفوه الريح فوق كل شيء (١) » ..

اما القلق فوجوده حقيقة واقعة بوجود الانسان نفسه ، انه احد الجدران التي تحيط بالانسان في هذه الحياة (الآمنة) . ها هو احد ابطال يونسكو يتحدث عن هذه الجدران بقوله :« كنت في مأمن، كنت اسير حزين ، وجبني وخوفي ، وندمي وقلقي ومسئوليتي . كنت في مأمن ، كان كل ذلك عبارة عن جدران تحيط بي وكان الخوف من الموت امتن دروعي (٢)» . اما الفراغ فوجوده حتم مقدر ، لان« من الواضح ، ان اسباغ هوية الشيء على ذاته امر لا يقبله العقل » . و« لان كل ما يجعل الحياة الحديثة ، في ايامنا هذه طيبة جذابة ، قد غير البشرية الى الحد الذي اصبح متعذرا معه التعرف على ملامحها (٣) » . ووجود الظلمة موكول باختلاط الاشياء وتداخلها ، وافتقاد البديهيات ، وحلول العميات محلها ، بحيث تصبح التعمية والخداع هما الصراحة والافصاح ، الاعتراف هو الانكار ، والامانة هي خيانة الامانة (٤)» وهكذا « كلما كان الشيء بالحقيقة ، باطلا ، كان بالباطل ، حقا (٥) » . ان على الانسان ان يحتمل كل ما قدر عليه من هذا الكابوس الذي نسميه الحياة تمجلا وتكلفا لان الفرار غير ممكن اصلا ، ها هو يونسكو يتحدث عن هذه الحقيقة بقوله : « انا لم ابرح مكاني الا لكي اظل ماثلا فيه ، هربت حقا ، اعني كذبا ، هربت لكيلا اهرب . نعم ذهبت لكي اظل ماثلا !» غير ان انسان يونسكو الفنان يحاول جهده إلا يستسلم ، وهو لذلك يقول :« كل قيد على حرية الفنان كل توجيه له لا يؤدي الا الى تزويد شهادة الفنان وتحريفها (٦)» وهو تبعا لذلك بصفته فنانا يقف في وجه كل من يعارض حرية الفن، سواء أكان هؤلاء المعارضون من اليسار ام من اليمين !

وخلاصة القول : ان يونسكو عمل ما في استطاعته على ابراز الرعب من خلال شخوصه ،و تراكم الاشياء ، وترجمة الفعل المسرحي الى تعابير مصورة ، وعرض صور الخوف والاسف والندم والغربة باشكال مرئية، والتلاعب بالكلمات (٧) وتجسيد الانسان الآلي ، الذي هو جزء لا والتوكيد على فراغه توكيدا مأساويا ، وتصوير اعراضه النفسية تصويرا دقيقا ، ووضعه في مكانه من الهرم الاجتماعي بغير رتوش ..

ومن ثم يصح لنا ان نقول : ان يونسكو عبر عن انسان العصر تعبيرا سكونيا ، لانه لم ير فيه الا ما هو موجود ، ما هو كائن ، باعتباره شيئا من الاشياء ، لازمة من لوازم هذا الوجود الشيئي وبذلك قيده بهذه الشيئية ،على الرغم من محاولاته الكثيرة لانقاذه المفتعل منها، ويعود سبب ذلك ، الى انفصام انسان يونسكو من مستقبله وتعلقه بالراهن الماثل ، كأن هذا الراهن هو الحقيقة المطلقة ، وهنا تكمن مأساة انسان يونسكو الشقي التعس .

يوسف عبدالمسيح ثروة

---

(١) جاك او الامتثال : ترجمة شفيق مقار (٢) الجوع والعطش: ترجمة د . سامية اسعد (٣) فتاة في سن الزواج : ترجمة شفيق مقار (٤و٥و٦) المرتجلة : ترجمة شفيق مقار (٧) مسرح اللامعقول :م. ايسلن: ترجمة : يوسف اسكندر .